الفصل الرابع

التداخل الإجناسيّ

مدخل:

إن تطور الأنواع الأدبية أدى إلى اختلاطها فتداخلت الأجناس الأدبية فيما بينها تداخلاً استوعب مفاهيم وفنون السرد وأنواعه المختلفة، فتختلط الأنواع وتمتزج لتكون فنوناً أدبية متوالدة أنتجها ذلك التلاقح، فاختلاط الأجناس مثل لوحة ترسم تحتاج إلى ألوان متمازجة لتكوّن الصورة التي يريدها المبدع مثلما كان يخطط لها.

فالتداخل الأجناسي بين الرسائل وبقية الفنون الأخرى تداخل لا يمكن فصله، لكن الرسائل تبقى محافظة على قوانينها وتقاناتها، فهي كإحدى الأجناس فيها موجه جنسي متجدد يتداخل وُيحوّر مع بقية الأجناس السردية، "ولقد غدا الجنس الأدبي موجهاً من موجهات القراءة، أي أنه يمنح القارئ مفتاحاً لقراءة النص يهدي أعراف الجنس الذي ينضوي النص تحته، ولذا فإن تكريس أعراف جديدة في قراءة النصوص، تستلزم بالضرورة تخطي الموجّه الجنسي للنص... فالحدود بين الأجناس الأدبية تعبر باستمرار، والأنواع تخلط أو تمزج كما إن القديم منها يحوّر، وتخلق أنواع جديدة أخرى، مما جعل مفهوم النوع الأدبي نفسه موضع شك"[1]، ويمكن أن يفيد الكاتب من تداخل الأجناس الأدبية في تطوير اللغة العربية والفنية نتيجة هذا التلاقح، وتجريب أشياء أخرى تنفتح على إبداعات وقدرات سردية جديدة ومتطورة، لذا "فإن تلاقح الفنون وتداخلها على النحو الذي يطور أداء الفنون جميعاً يلزم الفنان من الإفادة من كل التقانات التي تقدمها الفنون الأخرى لتطوير الفنان لغته، والانتقال بعمله من حدود الاعتماد الكلي على ثوابت الجنس التي تعمل عليها إلى انفتاح كل على قدرات سردية لا حصر لها"[2].

ونتيجة لتلاقح هذه الفنون فيما بينها حصلنا على أنواع أدبية شكلت نوعاً أدبياً آخر، ويتضح ذلك على نحو جلي في السرد الرسائلي عندما تداخل مع غيره من أنواع أدبية أُخر، لها خصوصيتها النوعية المتشكلة في تهجين أدبين من مثل امتزاج السرد الرسائلي مع السيرة الذاتية مع ملاحظة الفرق بين النوعين.

---

(1) مرايا نرسيس، الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، حاتم الصكر: 16-17.

(2) السير ذاتي في الروائي(التداخل الأجناسي في روايات عبد الستار ناصر)، جابر حسون هرم:17.

إن النشاط الإبداعي والكتابي أسرع وأكثر تطوراً في النقد للكتابات الأدبية والإجناسية، ولذلك تقول جليلة الطريطر: "إن صعوبة الوصول إلى حدود جامعة مانعة في حقل التنظير للكتابات الأدبية يعود إلى تسارع النشاط الإبداعي في تاريخ تطور جنس أدبي معين، بحيث تغدو المدونة الممثلة له متقدمة باستمرار على عملية التنظير التي لا تألو جهداً في ملاحقتها ومحاصرتها ولكن دائماً بصورة متأخرة"[1]، ويمكن القول بأنه يجب أن لا نعزل الفنون الأدبية عن بعضها، إذ "أن الحدود بين الأجناس الأدبية وتعيين المناطق الخصوصية بمثابة شرك ينتهي إلى حجب معنى الإبداع ذاته وإخفاء معنى العمل الأدبي"[2]، فالنصوص الأدبية متناسلة ومتفرعة ومتشابكة وبصورة متناهية إذ يلقي كل نص سابق بضلاله على اللاحق من قريب أو بعيد[3].

لم يألوا الكتّاب حديثاً جهداً في توظيف كل ما هو متاح من عناصر فنية تمتلكها الفنون الأخرى، ويمكن للرسائل أن تحتويها وتتفاعل مع مقوماتها الفنية لتصعيد مستوى الرسائل وتميزها، وكان لهذا الانفتاح نتائج إيجابية.

---

(1) مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث(جزءان)، جليلة الطريطر:74.

(2) الرواية المغربية بين السير ذاتية واستحياء الواقع، دراسات بأقلام مجموعة من الكتاب: 7.

(3) ينظر: التناصية وألف ليلة وليلة، نظيرة الكنز، مجلة دراسات بغداد، العدد (417) بغداد 2006م: 58.

المبحث الأول

التداخل مع الأدب التداخل مع الشعر

تتداخل في السرد الرسائلي الأجناس الأخرى، سواء أكان مع الفنون الأدبية الأخرى أو مع العائلة السيرية، فالحدود الفاصلة بينهما وبين هذه الأجناس متداخلة ويصعب التمييز بينها، ويدخل في السرد الشعر ولكنه يختلف في كثير من تقاناته عن النثر إذ يقوم السرد على التكثيف أما الشعر فإنه يقوم على الإيماء ولا يستطيع أن يجاري السرود النثرية في الإطالة[1]، وعلى الرغم من ذلك فإن استحضار النصوص الشعرية بات أمراً طبيعياً ولا سيما إذا كان الكاتب ذاته شاعراً.

والمتأمل في حركة إنشاء الرسائل يلاحظ أن الصراع بين الشعر والنثر كان يدعمه صراع آخر محوره مقاصد القول وأغراضه.

ولكن التنازع بين الشعر والنثر انقلب حركة خلّاقة تسعى إلى محو الحواجز بين هذين الجنسين الكبيرين.

فالتداخل بين الشعر والنثر في خطاب الرسائل أعتمد على:

1. التركيب الثنائي البسيط: يمكن أن نصنّف الرسائل من حيث بنيتها العامة إلى صنفين: صنف بسيط وصنف مركب، وذلك باعتماد النصية مقياساً إجرائياً، والوحدة النصية مقطع من مقاطع الكلام يستقيم بذاته من النواحي النحوية والأسلوبية والدلالية، في جملة أو ما فوقها، وتقوم البنية البسيطة على تركيب نحوي واحد وأسلوب خبري أو إنشائي، واحد وصيغة بيانية واحدة.

أما البنية المركبة فيمكن أن تفككها إلى وحدات فرعية، كل وحدة بذاتها، فيستخدم الكتاب هذا التركيب في الرسائل ذات البنية البسيطة فيكون النص كله وسطاً بين الشعر والنثر، بل أن العبارة النثرية في هذه الرسائل تقترب من العبارة الشعرية[2].

ومن رسالته حروف مجففة بالعطش يقول:

"الصورة إيّاها تلهث في رغوة الرغبات، والشبح المطارد يسحق في هزيمته المناخات، ويدوس على أحلام التجربة ويتلاعب بجغرافيتها"[3].

---

(1) ينظر: السيرة الروائية النوع والتهجين السردي، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر، العدد (14) لسنة1998 م:17.

(2) ينظر: الرسائل الأدبية: 328-329.

(3) سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح:19.

ومن الرسالة ذاتها يقول:

" الفجر!!! أين هو الفجر؟

أفتّش في جيوب فضائي فلا أجد إلا أريج الحروف تختلط بدم أصابعي، وترتفع نحو براري صدري لتفتنها بدعابة ترجئ الشعر إلى فجر فمي وبابي"[1].

ومن رسالته فوانيس الموسيقى يقول:

"هل أنتظر فرحاً قادماً؟

لقد هطل مطر غزير علينا أوّل أمس، أتراه يحمل وعداً ما؟ [2]"

2.**التركيب الثنائي المعقّد:**

يمثل التركيب الثنائي المعقّد مستوى من مستويات صناعة الرسائل يتجاوز فيه الكتّاب تضمين الشعر إلى إنشاء جنس أدبي وسط بين الشعر والنثر، وتحتضن الرسالة النثرية نتفاً شعرية يتحول بمقتضاها الخطاب كله إلى جنس جديد من أجناس الإنشاء، ولئن اهتم القدامى بهذه الظاهرة فإنهم أدرجوها ضمن أساليب تحسن الشعر للنثر[3].

فالجمع بين النثر والشعر يعد إثباتاً للمقدرة الأسلوبية وتعاقد بين الكتّاب وقُرائهم حول ملكية النص الأدبي وطريقة من طرق إثبات النص لصاحبه.

ففي رسالته (دعك من هذا المزاح الثقيل..واستيقظ) نجد امتزاجا في إحدى مقطوعاتها شعراً إذ يقول:

"إرخِ سمعك أيها القيسي..
أتدري ماذا أسمع الآن..
سربٌ من الآيائل يقتحم
جنون التفاح
فينطلق صهيل ورديّ
يقوّض زجاج الصمت
ويهشم التماعات السيوف،
ويثقب غرور القصائد
يهتف باسمك برقاً
يفترع الريح
ويلوّن السماوات بآلاف أقواس القزح،
ثمّ يفتح المدن

---

(1) المصدر نفسه:21.

(2) المصدر نفسه:61.

(3) ينظر: الرسائل الأدبية: 329 -330.

والطرقات
والمقاهي
والمطارات
وينزع عن الحكايات أسمالها:
صائحاً بكلّ مرارة الفقدان
وفرح الوهم
ودمع الدعاء:
دعك من هذا المزاح الثقيل.....
واستيقظ.."[1].

يرسم الشاعر لوحته لرثاء صديقه محمد القيسي وهو يناديه (إرخ) سمعك وبفقدانه فقد التواصل الحقيقي الذي كان قائماً بينهما فأمست أسراب الآيائل تقتحم جنون التفاح، وتحول الشعور بفقدان صديقه مبعثاً من بواعث الشعور بالحزن والأسى نتيجة البعد عن صديقه، وتتوسع المقاطع الشعرية في النص لتخلق مواقف وآراء، على طريقة المقابلة، ومثلما بدأ قصيدته نراه ينهيها بهذا المقطع (دعك من هذا المزاح واستقيظ)

من رسالته (أبي) التي تضمنت أيضاً مقطوعة شعرية إذ يقول فيها :

"لكَّ كلّ هذا المدى،
كلّ هذا النداء والرجاء والندى،
ولكَ الصوت والمسافة القصّية والصدى،
من أيّ بحرٍ أغرفُ الكلمات لك..
ومن أيّ سماءٍ أخطفُ النجومَ،
لأرصّعَ بها جبهتك..
ستبقى خالداً في جوهري.. في كتبي.. يا أبي،
ما أجملك.." [2].

ينقل الكاتب مكانة أبيه لديه ويقول:(ولك أول كتبي بعد رحيلك)ومن دون أيّ ريب ستستمرّ يا أبي كما هي الشمس كلّ صباح، لك اعتذاري الخجول المتأخر عن كلّ شيء.. يغلب على المقطوعة طابع الحزن.

ومن رسالته(على حافة البحر.. على حافة السماء)التي يضمن أكثر من نصفها شعراً إذ يقول:

" تلفّتَ النورسُ الأبيضُ،

---

(1) سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح: 117- 118.

(2) سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح: 108.

النورسُ الأسمرُ،
النورسُ المستحيلُ،
إلى شوق الجهاتِ وسين الحروفِ..
فانقلبَ اللحنُ الناريُّ نحو حصنٍ أليفٍ،
ينمو في حارته الصمتُ وتطوفُ الأسرارُ..
الغيمُ يحطُّ على موسيقى السرير،
الأنفاسُ الربّانية تمطرُ شوقاً، فرحاً
في ظلّ عبير الزهر وإيقاع الرعشات،
والساحلُ يوقظُ فجرَ الريح بلا سفرٍ..
على وهج النغم الأخضر"[1]

يشكل المقطع الأفتتاحي(تلفّت النورس الأبيض) البؤرة التي تستقطب الحدث، والنواة التي تتناسل منها ثيمات النص الشعري، والشاعر يعطي حبيبه صفة التلفت، تلفّت الحبيب الأبيض/ الأسمر/ المستحيل، والتلفت هنا استعارة بدأها الشاعر عن الحب إلى الشوق، فنلحظ ها هنا قد حافظ على وحدة الموضوع، ولا سيما في المقطع النثري الذي سبق هذا المقطع فكان طائره في ذلك المقطع (الهدهد)، وأما في المقطع الشعري كان طائره (النورس الأبيض) فلا يختلفان عند الشاعر في شيء.

ومن الرسالة ذاتها يقول:

" غوصي في دمي أيتها الغزالةُ الأليفةُ،
مشّطي رغبتَهُ بالتدفّق بين أحضانك،
واسكبي على حمرته ذهباً من حضارة شفتيك.
حرّريه من عذابه الأبديّ،
قُصّي عليه مزيداً من الحكايات علّه يرعوي..
ثم يدرك أن الحياةَ محضُ حكاية
العبي معه ما شئت من لُعب الطفولةِ،
عنّفيه، وغذّيه برحيق المستحيلاتِ،
حيث لا تنمو اللحظات السعيدة في مرايانا...
كما نشتهي دائماً،
ولا تنسي أن تذكري له أنكِ من أفضل عشّاقه
–هو يحب ذلك طبعاً-
وعليه أن يفهمه في لحظة إشراقهِ جيداً،
ويضع في حسبانه أنّ الليلةَ إياها جنّةُ للمحبين،

---

(1) المصدر نفسه: 68.

وقبلة للقصائد إذا ما رغبت بالحجّ إلى كلمات الغزل.
لا تنسي أيضاً أن تضعي في أعلى رأس النبع
-إذ يكون الاحمرار على أشدّه - قبلة شوق..
تترك أثراً كالجرح
كي يبقى تحت لسانكِ طعماً حلواً،
لا يترك تلك الليلة مهما اشتدّ هياجُ الريحِ،
ومهما بَعُدَ البحرُ
وناءَ الطير الأجملُ
في أقصى الصحراء"[1].

ويبدأ الشاعر قصيدته بفعل الأمر (غوصي) المسند إلى المخاطب/ الحبيبة، والغوص هو النزول إلى الأعماق، ولعل سبب التواصل قد تحقق في هذا اللقاء، فهو يناشد بأن تمشط دمه وتحرره من عذابه الأبدي، وأن لحظة الحياة هي محض حكاية ويذكرها بأنه من أفضل عشّاقها، ويبحث عن ديمومة لحبه ووفائه.

إن الكاتب/ الشاعر محمد صابر عبيد في إنجازه هذا بما يسمى التداخل الأجناسي، إذ اهتدى إلى صيغة فنية أدبية بتكوين نص ينقسم على نصفين (شعر/ نثر) و(نثر/ شعر) أو بما يسمى النثر المشعرن أو شعرنة النثر/ السرد، والمتتبع لهذا الموضوع يجد أن بعض الروائيين/ الكتاب يستشهد بأبيات شعرية حتى بدون نسبتها لاصحابها، فكيف إذا كان الكاتب هو الشاعر؟ وهو ما يجعل القارئ بتذوق صيغة نصه الأدبي، ويمكن القول إن أهم وظائف النصوص المستشهد بها تتجلى في ما يلي:

- تمكن هذه النصوص من إبراز رؤية فنية وبالتالي التأثير غير المباشر على طبقة محدودة من النصوص التي تشكل في حدود ذاتها طبقة من الحساسيات خاصة، كما تمتلك سلطة رمزية لها رؤيتها الفنية المميزة
- الاستشهاد بالنص الشعري يعطي دليلاً قاطعاً على أهمية التلاقح بين الأجناس الأدبية الذي ساد التنافر بينها في ظل ثقافة عربية محافظة عملت على تسييد الممارسة الشعرية، وتفضيلها على ما سواها من الأجناس الأدبية السردية خاصة تلك التي كانت لها مرتبة دونية في سلم الأجناس الأدبية العربية[2].

فاستحضار النص الشعري في النصوص السردية له تأثير على الدور البالغ الأهمية الذي تلعبه الصور واللغة والتعابير الشاعرية في النصوص الأدبية، فالشعراء

---

(1) سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح: 70-71.

(2) ينظر:عتبات الكتابة في الرواية العربية، عبد المالك أشهبون: 186.

فنـانون يرسـمون بالكلمـات مشـاعرهم ويترجمـون مـا تكمـن بـه قلـوبهم بـأقلامهم، وتضمين الرسائل قصائد جعل من الرسالة تقوم مناصفة بين الشعر والنثر، ، فالكاتب كونه شاعراً يحتاج إلى الشعر فيتدفق الشعر حتى يأخذ مكانـه فـي الرسـالة لكن تبقى روح السرد واضحة فيه فيقول عن هذا الأسلوب "أنه شعر مشحون بطاقة السرد"[1].

(1) لقاء مع الكاتب محمد صابر عبيد: الأربعاء 2013/6/5.

تداخل السير ذاتية والرسائل:

ترتبط وتتداخل السيرة ذاتية مع الرسائل، إذ يلتقيان في نسق الزمن الاسترجاعي، فكل منها يعتمد على أحداث وقعت في الماضي، والمؤلف/ الراوي يسرد بضمير المتكلم " وخلافاً لذلك، فإن الدقة تكون أشدّ، وإن لم تبلغ حد الكمال، إذا ما أدرج كاتب السيرة الذاتية في نصه رسائل تعود إلى العصر الذي هو بصدد تذكره"[1]، إذ تنهض هذه الرسائل إذا ما ذكرت في السيرة لاستعادة بعض الحقائق التاريخية، "فإن الميل الفطريّ لكاتب السيرة الذاتية يلائم ذوق القارئ كل الملاءمة: فالأول بحاجة إلى إحياء ماض عزيز عفا، والثاني يجد لذة في أن يرى نفسه في غيره وان يطمئن إلى أنه إنسان سويّ، وفي هذا الصدد أيضاً نجد أن لبعض كتاب السيرة الذاتية من نفاذ السيرة ما يبعث الدهشة حقاً"[2]، وكاتب السيرة يشعر بمتعة في ذكر سنين مضت، ولا سيمّا إذا ما تضمنت جزءاً من حياته الخاصة، فـ "التغذي على طاقات الفنون الأخرى إنما يعمل على الارتفاع بمستوى الجنس الأدبي المعين إلى وضع مغاير ينطوي على قيم تعبيرية جديدة مدهشة"[3]، من المواضيع السير ذاتية الكثيرة التي تؤكد لنا هذه الظاهرة، ذاكرة الطفولة أو المراهقة، فهي من دون شك تجسد هذه الظاهرة خير تجسيد، فالشخص، قبل أن تكوّنه بيئته وثقافته تكويناً كاملاً، هو الأقدر على التأثير في الناس تأثيراً شاملاً، ولذلك فإن الحديث عن (طفولة) الشخصية يستغرق من السير الذاتية حيزاً كبيراً، وإن طائفة كبيرة من السير ذاتية تقف عند بلوغ صاحبها سن الرشد[4].

ومن أمثلة التداخل الأجناسي بين الرسائل والسيرة الذاتية من رسالته(أبي) " **مرّت سنوات وأنا أكبر وأبي يصّر على الاحتفاظ ببعض ما علمته بيروت إياه، مقابل إصرار البيئة على أن تعيده إلى حضيرتها الريفية.. ويتكشف عن قسوة لا تناسب شكله كانت تبهضني وقتها ولم أدرك قيمتها ونتائجها إلا فيما بعد ، وخيبت ظنه أولاً إذ لم أصبح طبيباً كما كان يشتهي، وعلى الرغم من أن سلوكي كان هادئاً ولم أكن عدوانياً في يوم من الأيام، إلا أن أعماقي كانت – وما زالت- تشتعل بالتمرد والبحث عن اللذائذ والتطلع الدائم الذي كان يورطني بالمزيد من الأخطاء، على**

---

(1) السيرة الذاتية: 144.

(2) المصدر نفسه: 115 .

(3) السير ذاتي في الروائي- التداخل الأجناسي في روايات عبد الستار ناصر،(اطروحة دكتوراه): 18.

(4) ينظر: السيرة الذاتية :114-115.

النحو الذي استحقّ فيه عقوبات أبي المستمرة، كنت لا أتوقف عن التمرد واقتراف الأخطاء، وكان لا يملّ من معاقبتي، في علاقة شائكة مثيرة أسهمت عميقاً في بناء جزء من شخصيتي على نحو لا يخلو من شطط.

أمي.. رسلية يونس الحاج حامد القوية التي ناضلت طويلاً في غياب أبي وفي حضوره اجتازت الامتحانات القاسية كلها بنجاح، وتمكّنت من جعل الأشياء قابلة للحياة على نحو ما.. اعتنت بأبي كثيراً بعد أن كبرنا وغادرنا بيت العائلة فظلّت بقربه فيضاً من المحبة والحنان حتى لحظة رحيله بين يديها، كما ظلّت تتشبّث بما تبقى من قوّتها بالرغم من انكسارها، ولا أدري كيف ستتعامل مع هذه الحقيقة المرّة التي تسميها الفراق وقد رأتها في سرّها قبل أن تحدث فعلاً. سيرته الذاتية سيرة الصمت والكتمان والتأمل، كانت محكومة أبداً بنظرية خير الكلام ما قلّ ودلّ..."[1]، يسجل الكاتب في هذا الجزء من الرسالة جانباً سيرياً يتعلق بحياة والديه وقد تجلى ذلك في بداية الرسالة (مرت سنوات) فيبدو الكاتب مشبعاً بالحنين والتذكر والاحساس بالفقدان، ولاسيمّا الأم وكيف اجتازت مجموعة من الصعاب وذللتها، وتحولت بعد غياب أبيه إلى أم فاعلة، لتجتاز مواقف الحياة الصعبة، وفي هذا المشهد تحقق تداخل السيرة ذاتية مع الرسالة.

---

(1) سيرة الجسد وصهيل المطر الجريح: 103 -104.